الشلالة الظهرانية من العهد العثماني حتى عهد الاستعمار الفرنسي

الدكتور سيرات بوحفص
جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة

مقدمة:

تعد منطقة الجنوب الغربي الجزائري من بين المناطق الجزائرية الضاربة بجذورها من ما قبل التاريخ، وما قصر الشلالة الظهرانية إلا أنموذجا لهذه المناطق والتي عرفت حقبا تاريخية متعاقبة زاخرة بالأحداث التاريخية وقد حددتها من العهد العثماني حتى العهد الاستعماري الفرنسي فما هي أهم الأحداث التي عرفها قصر الشلالة الظهرانية ؟ وهل انقاد السكان إلى مطالب الأتراك والفرنسيين فيما بعد أم أنهم قاوموا ولم يستسلموا وما أهم البطولات التي حققها سكان القصر؟

تأسيس القصر:

في الجزء الغربي من الأطلس الصحراوي تمتد جبال القصور من الحدود الجزائرية المغربية إلى جبل عمور، و تقع بين الهضاب العليا والصحراء من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، نجد قصور "بني ونيف ،مغرار التحتاني وصفيصفة وعسلة و عين الصفراء و تيوت و الشلالة الظهرانية و الشلالة القبلية و مغرار الفوقاني و بوسمغون و أربا الفوقاني و أربا التحتاني والأبيض سيد الشيخ و سيدي الحاج بن عامر و كراكدة و مشرية الصغيرة و بوعلام و سيدي أحمد بلعباس و المايعة وخلاف و الغسول و بريزينة و سيدي تيفور و سيدي سليمان و الكديان و ستيتن1.إنّ سبب تكون هذه القصور يعود إلى عدة أسباب سياسية واقتصادية وبيئية نتيجة كثرة المياه وهذا هو السبب الرئيسي لنشأة قصر الشلالة الظهرانية الذي سبق قصور أخرى قديمة وهذا ما تبينه الآثار الموجودة على بعد كيلو متر واحد أما القصر الحالي حسب الرواية الشفوية فيعود إلى الأدارسة الشرفاء والذي تأسس في القرن الثاني عشر حوالي 1180من قبل مولاي يوسف من الجيل الثاني عشر بعد إدريس الثاني .

الموقع الجغرافي والفلكي

تقع الشلالة الظهرانية2 في قلب جبال القصور على بعد أربعة وسبعين (74)كلم من العين الصفراء وأربعين ومائة(140)كلم عن البيض (تابعة إداريا لولاية البيض). إنّ الشلالة الظهرانية تحتل موقعا استراتيجيا ،إذ تقع على طول الأطلس الصحراوي وتعد همزة وصل بين الشمال والجنوب عن طريق سيراط الخيل شمالا وبوسمغون جنوبا ، يجاورها ثلاث قصور قديمة ،قصر عسلة بسبعة عشر (17)كلم والشلالة القبلية بستة(6)كلم وقصر بوسمغون بتسعة عشر(19)كلم .أما الموقع الفلكي فالشلالة تنحصر بين 2-33°شمال خط الاستواء و0-7°غرب خط غرينتش.

الشلالة الظهرانية في العهد العثماني :

MOKARABAT

لقد تدهورت الإمارة الزيانية* في عهد محمد الثابتي وضعف شأن ملوكها .وفي سنة 897هـ-1492م سقطت غرناطة في يد الأسبان ،وبذلك قضوا على آخر دولة إسلامية بالأندلس ،كما تعرضت الجزائر خاصة المرسى الكبير إلى محاولات هجومية من طرف البرتغاليين باءت بالفشل ، وفي سنة 910هـ-1505م تعرض ميناء مرسى الكبير إلى هجوم الأسبان وفشل السلطان الزياني في حماية المرسى الكبير ، ودخل الأسبان إلى بجاية ، فخشيت المدن الأخرى من سطوة الأسبان فاستنجدوا بالعثمانيين ، وفي هذا الصدد يذكر عبد الحميد حاجيات "وأخيرا قرر الأتراك خلع السلطان الحسن ابن عبد الله بن محمد الثاني آخر أمراء بني زيان سنة 962هـ-1554م وبذلك انقرضت الدولة الزيانية "3 .

هل كانت الشلالة الظهرانية خاضعة للنفوذ العثماني ؟يرى ناصر الدين سعيدوني"أن مجموعات سكانية كانت ممتنعة عن سلطة البايليك ،وكانت تتألف أغلبها من القبائل التي تعيش في المناطق الجبلية الحصينة كالبابور ...أوالتي كانت تجوب جهات الهضاب العليا الوهرانية والأطلس الصحراوي أولاد نايل،والعمور والقصور..."4. إذن في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يفرضون سلطتهم ونفوذهم على الكثير من المدن الساحلية و الداخلية كانت منطقة القصور والأطلس الصحراوي مستقلة عن نفوذ البايليك والشلالة مادامت تقع في جبال القصور فظلت هي الأخرى مستقلة عن النفوذ العثماني، رغم أن المغرب الأوسط قد قسم إلى بايليكات.ولكن لا يعني هذا أن الشلالة ظلت في منأى عن السلطة العثمانية وتحرشاته، بل كانت تخضع لحكم أمراء محليين ، ذلك أنّ الأتراك جعلوا بينهم وبين أهالي هذه المناطق واسطة عرفت بقبائل المخزن فكانت هذه القبائل والعشائر حلقة وصل بين الأهالي والحكام الأتراك ، إذ كانت لها مهام إدارية وعسكرية،" لقد حاول الباي محمد الكبير باي الغرب الذي كان لايزال خليفة لأبي إسحاق إبراهيم المليانى "قائد مليانة" بعد أن أظهر براعته في الحكم ، من إصابة في التفكير وحسن التسيير ،فعينه خليفة له سنة 1182هـ وبعدها عينه الداي بايا على الإيالة الغربية سنة 1192هجرية وبمجرد جلوسه على الكرسي شرع في إخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركي مثل قبيلة بن طلعة، الحشم ، حميان، العمور ،وكل قبائل القصور ، فانتصر على كثير منها فأخضعهم في المخزن5 ،فأصبحوا له منقادين ، ولحكومته مخلصين"6 يتضح من هذا أنّ العثمانيين ليفرضوا سيطرتهم على منطقة القصور جعلوا قبائل المخزن حلقة وصل بينهم وبين الأهالي ورابطة متينة شدت المحكوم إلى الحاكم وحافظت على استقرار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وهذا نظرا للدّور الذي كانت تؤدّيه قبائل المخزن إداريا وعسكريا،ومن بين قبائل المخزن التي كانت متعاونة مع النظام التركي نجد قبيلة أولاد سيد الشيخ وهذا ما أكّده الرحالّة العياشي في رحلته المشهورة التي قادته إلى الجنوب الجزائري في القرن السابع عشر والتي أسرد فيها أحداثا تساعد على معرفة أوضاع الجنوب الجزائري في هذه الفترة سياسيا واقتصاديا وثقافيا وللإشارة فإنّ العياشي حجّ ثلاث مرات كما يذكر مولاي بلحميسي عابراً الصحراء لهذا كان أدرى الناس بصحراء المغرب الأوسط"إن أجزاءاً كبيرة من البلاد كانت مستقلة لا تخضع للوجود العثماني بل هي تحت تصرف أمراء محلّيين ... ولأولاد سيد الشيخ نفوذ على مناطق شاسعة".7(انظر الخريطة) إنّ تنصيب قبيلة أولاد سيدي الشيخ كقبيلة من قبائل المخزن كان بعد الغزو الذي عرفته الشلالة الظهرانية من طرف الباي محمد الكبير نتيجة عدم دفع الضرائب و الاعتراف بالسلطة

MOKARABAT

العثمانية من سكان قصر الشلالة وفي هذا الصدد يرى رينيه باسيه"هذا التمرد هو الذي دفع بالباي التركي محمد الكبير حاكم وهران محاولة سيطرته على منطقة القصور،و حاصر الشلالة"8.

ويؤكّد الباحث بن عمارة خليفة أنّ "لدينا تقرير دوليني في منتصف القرن التاسع عشر والذي يتعلق بغزو الباي محمد الكبير ضد الشلالة سنة 1786.يظهر لنا القصر ذو شهرة جيدة في مجال الثراء ب220 بيتا ،وأنّ سكّانه 1200 ببنادقهم (350الى400) المنتشرة على الأسوار ، يشعرون بالقوة بالمقدار الذي يتحدون به الحكم التركي الذي جهز انطلاقا من معسكر ، سرية ب700 جندي مزودة بالمدافع ،ناهيك عن جنود القبائل الملحقة "9.هذا يدلّ على أنّ باي وهران كان يحاول فرض سيطرته ونفوذه بالقوة لكن وجد أهالي الشلالة صامدين ،مسلحين قادرين على الدفاع عن قصرهم رافضين مطالب الباي محمد الكبير . مثلما تمردوا على ولاة بني أمية نتيجة الظلم والسيطرة، هذا وقد سبق لأسلافهم أن قاوموا الرومان والوندال.تذكر الرواية الشفوية أنّ الباي محمد الكبير حاول الدخول من كل النواحي فوجد عقبات تحول دون ذلك لأنّ التحصين كان محكما حيث يوجد سور متقدم يحمي البساتين وسور يحمي القصر إضافة إلى الحراسة المشددة والإيمان بالدفاع عن النفس .استمر الحصار للقصر ستة أيام واستطاع أن يهدم ناحية من السور الأول تمكن من الدخول ونصب المناجيق لضرب الصومعة ، في هذه المعركة التي تبادل فيها الطرفان الطلقات النارية تكبد فيها الأتراك خسائر مادية وبشرية حوالي 174قتيل إذ تذكر الرواية الشفوية أنّ هناك مقبرة خاصة بالأتراك .حاول الباي محمد الكبير التفاوض من أجل الاعتراف بالسلطة العثمانية ، ودفع الضرائب.كما أنّ المصادر التاريخية تبرر غزو الباي محمد الكبير للشلالة ليقطع الطريق أمام الحركة التيجانية في المنطقة لأنّها كانت تشكل خطرا على الأتراك إذ عدّت من المعارضة، وذلك لأنّ أحمد التيجاني الذي استقر ببوسمغون10 مترددا على الشلالة لنشر الطريقة التيجانية قد عانى من ظلم الأتراك يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله:"...ولكن بايات وهران لاحقوه ونغصوا عليه حياته هناك فاتجه إلى فاس سنة 1212هـ هجرية بأولاده وأهله وتلامذته،وقد رحّب به السلطان سليمان وأحضره مجلسه وأعطاه دارا كبيرة وراتبا .وقد اشتكى التجاني إليه من جور الترك وظلمهم"11.وهذا يدلّ على أنّ أحمد التيجاني في تجواله بين تلمسان ،والمغرب والصحراء ،لم يعد له استقرار في نشر طريقته التيجانية الصوفية ولأنّ الشلالة عرفت هذه الطريقة المعارضة للتواجد العثماني،هذا كلّه قد أثار انزعاج العثمانيين لهذ تعرضت الشلالة لغزو الأتراك بعد شعورهم بأنّ منطقة القصور لم تعد تحت سيطرتهم وهذا ما يشير إليه أبو القسم سعد الله "وقد ظهرت دعوة التيجاني في الوقت الذي بدأ العثمانيون يتوجسون من نشاط الطرق الصوفية عموما .ذلك أنّ ظهور الطريقة الطيبية في المغرب وعلاقتها السياسية بالحكم هناك وكذلك ظهور الطريقة الدرقاوية هناك وامتداد نشاط الطريقتين إلى الجزائر وتردد التيجاني بين فاس وتلمسان والصحراء ،كل ذلك قد أثار مخاوف العثمانيين في الجزائر"12. لكن إذا كان قد وقف الند للند للعثمانيين ، ولم يعترف بهم وكان يشكل خطرا عليهم في عدة مناطق فقد تحدثت بعض المصادر التاريخية عن العثمانيين ومواقفهم المعتدلة مع رجال الدين والتصوف ،فقربوهم إليهم،وحظوا بالمكانة المرموقة فكان العثمانيون يطمئنون إلى المرابطين فيلجئون إليهم ،ويتبركون بهم حيث كانوا يترددون على الزوايا من أجل نيل البركة ، ومن هؤلاء الذين كانت لهم علاقة وطيدة بالحكم العثماني نجد أحمد بن يوسف الملياني .لقد

MOKARABAT

كانت الشلالة هي المكان المفضل للملياني الذي أقام في الشلالة إذ يوجد اليوم ضريح ابنته عائشة خارج القصر رمم حديثا وترك مثلا يتردد على ألسن الشلالين "الشلالة شلالتي خليت فيها بنتي وعبايتي".

هذا الولي الصالح الذي كانت الشلالة المكان المفضل له في الجنوب الغربي كان عضوا نشطا في الحركة المرابطية المؤيّدة للأتراك، والعدوة لملوك تلمسان الزيانيين الذين طاردوا أحمد بن يوسف الملياني وسجنوه،ونظراً لمكانته الدينية والصوفية وتأثيره على الجنوب الغربي الجزائري من خلال نشره للطريقة الشاذلية التي سادت لفترة طويلة في المنطقة وهنا يشير أبو القاسم سعد الله "وتذكر الروايات أيضا أنّ عروج قد زار الملياني13 واتفق معه سرا على عدة أمور منها إعلان الملياني وأتباعه تأييدهم للعثمانيين بينما تعهد عروج بعدم التعرض للملياني ونسله ومن تعلق به ...فقد ظل الملياني وأتباعه مؤيّدين للعثمانيين كما حافظ هؤلاء على التزامهم له ولطريقته وأولاده وأتباعه"14.إذن عرفت الشلالة الظهرانية عدة طرق صوفية منها الرافضة للسلطة العثمانية من مثل التيجانية التي تحمل اسم صاحبها سيدي أحمد التيجاني ،والمؤيّدة لها من مثل الشاذلية التي نشرها في المنطقة الملياني وربّما كان التفّوق للطريقة التيجانية في البداية نظراً للمقاومة التي أبداها أهالي القصر في البداية مع الأتراك.

الشلالة خلال الاستعمار الفرنسي:

لابد من الإشارة إلى أن الاستعمار الفرنسي دخل المنطقة متأخراً بالمقارنة مع الشمال، لكن نظرا للأهمية الإستراتيجية للجنوب الوهراني ومحاولة فرنسا السيطرة على الصحراء،ومراقبة الطرق التجارية الصحراوية وكذا قطع الطريق أمام الأمير عبد القادر الذي حاول إحياء المقاومة في الجنوب الغربي الجزائري والذي احتضنته قبيلة حميان في البداية ،استخدمت فرنسا القوة العسكرية لإخضاع المنطقة فقد قرر " الجنرال كافينياك معاقبة حميان لاستقبالها الأمير عبد القادر "15.ونتيجة التعذيب والنهب الذي تعرضت له قبيلة حميان والقصور المجاورة اضطر الكثير من الأهالي إلى الهجرة صوب المغرب الأقصى .لماذا القصور؟ لأنّها" احتضنت الأمير عبد القادر الذي طارده العقيد رونو في 1846"16 وحاصره في ولاية البيض،فدخل إلى الشلالة قادما من عقلة الحمام ففتحوا له الأهالي القصر ووفروا له الحماية فأعطوه المئونة و ستين (60)شابا بمثابة حزام أمني لصدّ العدو توفوا كلّهم في الأخير،واستطاع الأمير عبد القادر الفرار رفقة جماعة من الشلالة كما تبيّنه الرواية الشفوية، ولاحقته فرنسا وانتقاما من أهالي القصر "عملت فرنسا على تدمير و حرق جزءا من القصر"17 .ومن بين ما أحرق المكتبة الخاصة بالمسجد وأخذت باقي الكتب الثمينة ،وتذكر الرواية الشفوية إنّ الأمير رجع مرتين لتعزية أهالي الضحايا ،لقد عرفت الشلالة الظهرانية مرور الوحدات الفرنسية التالية:

-1847/23/21 الجنرال رونو.

1853/04/16 العقيد ديريو.

-1855/12/4-1 العقيد دي كوليستين.

-1865/04/07 العقيد دي كولومب الذي كان عنيفا مع الأهالي والذي هزم في معركة"ثنية الطرد"هذه المعركة لتي سميت بيوم الشلالة و التي تغنى بها الشاعر أحمد بن دالة العامري:18

MOKARABAT

يَالحَاضَرْ عُودْ الأَخْبَارْ وشْتَاه صَارْ عْلىَ نْهَارْ الشَلَالَة فِي الزْمَانْ مَعْدُودْ
سَعْدْ نْهَارْ الشَلَالَة خَرْجَتْ المحَلَةَ جَاتْ ثَمَا الخَيَالَة مَا بْقَى المِجْحُودْ
جَاتْ ثَمَا الخَيَالَة فَزْعَتْ القْبَالَة عُدْتْ دَايَرْ دَوْلَة وبَهْتَتْ كِيْ المغْدُودْ
رَاهْ فِي الشَلَالَة مَحْصُورْ بَيْنْ الْقْصُوْر مَرْ ذَا ٱلكَلْبْ غْدَا مَدْمُورْ سَحْقَهْ البَارُودْ
لَوْ مَا ذُرِيَةَ حَمْزَة لَوْ بْقَى مَالْكْهَا بُورَانْ
مِنْ أَيْنْ نَادَى رَبُ الْعِزَةِ جَاءَ مُحَمَدْ وسْلَيْمَانْ
فَكْ العِبَادْ مِنَ ٱلنَزَةِ قَامْ بها واشْرَحْ الأَدْيَانْ.19

-11-1868/04/12 العقيد كولونيو.

من هنا تتبّن الحملات الفرنسية المتكررة والمتوالية على منطقة القصور بهدف إخضاعها وكذا مراقبة تحركات أولاد سيد الشيخ الذين كانوا يسيطرون على الطرق التجارية الأمر الذي عجل بثورة أولاد سيد الشيخ التي أعطت دروسا لفرنسا وهلك فيها طابور العقيد كولونيو.بعد هذه الثورة عرفت الشلالة حدثا هاما وهو مقاومة بوعمامة التي مرّت بمراحل كثيرة كان وقعها كبيرا على منطقة جبال القصور ،وارتبطت مرحلة من مراحلها بمعركة هامة وكبيرة تركت أثرها العميق في نفوس المستعمر الفرنسي سلبا وكانت لها أهميتها الإيجابية لأنصار بوعمامة و أتباعه وهي معركة الشلالة .من هو بوعمامة20 وماهي مراحل المقاومة ؟وكيف نجحت معركة الشلالة؟ وماهي نتائجها على القصر ؟وماهو دور القصر في هذه المعركة ؟

"بوعمامة ينتمي إلى قبيلة أولاد سيد الشيخ الغرابة ،كان ميلاده حوالي 1833م الموافق ل1251هجرية بمغرار بالعين الصفراء "21.وقد سمي بوعمامة لأنّه على عادة العرب كان يزيّن عمامته التي هي حايك فيلالي بخيط قطني مصنوع من وبر الإبل أو شعر الماعز عرفت عائلة بوعمامة بتقواها الدّيني وحرصها الشديد على تطبيق التعاليم الإسلامية ،لذا حظي الشيخ بوعمامة بتربية أصيلة على يد مشايخ مشهورين أمثال الشيخ مصطفى بن محمد الطيب بن يعقوب.استطاع بوعمامة أن يؤسس الزاوية العمامية سنة 1875 المناهضة للاستعمار الفرنسي إذ رفع لواء الجهاد كما أزال مفاهيم البركة الموروثة عن الأجداد حيث كان يعتقد أن البركة لا تورث وإنّما لكل بركته حسب عمله وتقواه.استطاع بوعمامة أن يقرب كل الأهالي حوله وكثر أنصاره في الجنوب الغربي والصحراوي والقصور لهذا بدأت فرنسا تلاحق بوعمامة ."لقد كانت مناطق الجنوب الغربي الجزائري قبل 1847 شبه مستقلة لم تخضع لهيمنة الاستعمار ماعدا وجود المركز العسكري الوحيد بمنطقة البيض(جيريفيل) 22 سنة1853"23.

لقد سبقت مقاومة بوعمامة في المنطقة مقاومة الأمير عبد القادر الذي احتمى بالقصور وخاصة أهالي الشلالة وثورة أولاد سيد الشيخ لكن بعد التوسع الاستعماري في الجنوب الغربي بدأ بوعمامة يستعد لإعلان الجهاد ضد المستعمر جعل من قصر مغرار مركزا لانطلاق العمليات الجهادية والعسكرية ."أنشأ بوعمامة معملا لصناعة الأسلحة كالبنادق بإشراف رجل يدعى ابن كعوان ،وصناعة الذخيرة وكانت مئونة الجندي الواحد 50 خرطوشة إلى جانب ذلك شراء الأسلحة وسلبها من العدو"24.

MOKARABAT

معركة الشلالة: قام بوعمامة بتحضير جيش قوي ضم مختلف القبائل من أولاد سيدي أحمد المجذوب والطرافي و العمور و حميان و أهل القصور، وبني قيل وأولاد جرير و دوي منيع والشعانبة "25.كان هذا لمواجهة الجيش الفرنسي في منطقة تازينة (الشلالة)دامت المعركة أكثر من أسبوع.لقد تحركت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال كولونيو دانسي Colonieu Danci الذي تخلى عن القيادة للعقيد إينوسونتي Inoconti على إثر مرض وتحرك هذا الأخير متوجها إلى الشلالة يوم 1881/04/14حيث" قيّم قرول graulle القوات الشعبية بحوالي 1500 فارس ،1200 مشاة بالمقابل قوات الخصم كانت محددة بالأرقام ومضبوطة :ثلاث فيالق مشاة تحت قيادة العقيد سويني swiney .أربع فرق من الصياد الإفريقي رقم04 تحت قيادة العقيد إينوسونتي ،فرق مدفعيات ،مختلف المصالح الملحقة ثلاثة قوم من سعيدة فرندة وتيارت ،قافلة تتكون من 2500 جمل يقودها 600مرافق"26 .لقد جرت المعركة يوم1881/05/19 إذ أقلع طابور الشيخ بوعمامة من الشلالة الظهرانية في اتجاه الشرق وفي اليوم نفسه التقت قواته مع القوات الفرنسية بالمكان المسمى المولاق قرب الشلالة الظهرانية في جبال القصور "ففي هذه المرحلة جرت موقعة المولاق الشهيرة بين الجيش الفرنسي والثوار وخلالها أيضا سار بوعمامة وأتباعه مسيرتهم الطويلة نحو التل"27لقد خاض الثوار المجاهدون رغم الفرق الموجود في العدّة والعدد معركة حاسمة انطلق فيها بوعمامة من الشلالة عكس المعارك الأخرى التي كانت تنطلق من مغرار تسلحوا فيها بالإيمان وأعطوا للعدو درسا في الكفاح والثورة إذ أحدثوا ارتباكا في القوم مما أحدث فوضى داخل الجيش الفرنسي فتراجعوا خلف القوافل فتم القضاء على الصيادين بما فيه الملازم لانيريlanyrie إذ ابتعدت الجمال عن مسرح العمليات وانفصلت عن الجيش .هذه الضربة لقيت صدى في البلاد مما جعل السلطة العسكرية تمنع القوم من نشر خبر انتصار بوعمامة في طريقها إلى البيض ،لكن الخبر شاع إذ بدأت الأخبار تصل إلى الشمال الشرقي حيث ابتهج سكان جبال القصور لهذا النصر وانضموا إلى الحركة الثورية حيث أنّ مجرد سماع خبر قدوم بوعمامة يجعلهم ينفذون أوامره دون نقاش . يوم 1881/05/25 قام بوعمامة بمداهمة 20من القوم من قبيلة لمرابطة الغرابة وقائدهم الطيب بن حمو الذي كان يُؤَمن وصول المعلومات للعدو لكنه انضم بعد الهزيمة إلى صفوف بوعمامة لإقناعه بشهادة وحكمة زعيم الثورة"28. ولمواجهة انتصارات الشيخ بوعمامة المتتالية قامت السلطات الفرنسية بإرسال قواتها إلى الجنوب الغربي من أجل تطويق الثورة والحد من نفوذ بوعمامة فقد" قام العقيد نيقري بمعاقبة كل القبائل التي شاركت مع بوعمامة وكانت البداية بتهديم زاوية الأبيض سيد الشيخ"29.

وفي يوم 1881/05/21قام العقيد اينوسونتي بدفن أحد ضباطه وحرق درب أولاد زيان بالشلالة ،وفي يوم1881/08/12 أعدم العقيد نيقري بعد مهاجمته للقصر ثلاثة شبان من سكان القصر بتهمة نبش قبر الضابط المدفون"30 الشبّان الثلاثة الذين أعدموا هم على التوالي (العربي بن عزوز و العربي بن كروم وبن عنان).

وحسب الرواية الشفوية فإنّه بعد حرق درب أولاد زيان فلم يبق في القصر إلاّ المستضعفون أما الباقي فقد أكمل المسير مع بوعمامة بعد النصر الذي حققه .يذكر شاعر الشلالة كربوب أحمد أبياتا يمجد فيها بوعمامة .

MOKARABAT

زَعِيْمْ الصَحْرَاء الشَلَالَة تَشْتِيْكْ مِنْ القَرْنْ اِللِي فَاتْ بْقَاتْ أُوصَايَة
وُوُصَايَة وْبْقَاتْ فِي الفِكْرْ تْحَيِيكْ حَيِ ْيناَكْ اليْوُمْ فَخْرَا وعِنَايَة
هَيْكَلْنَا دَشَنَاهْ مَجْدَا وَوَاتِيْكْ يَبْقَى فِي التَارِيْخْ فِي القْصَرْ هْنايَه
غَدْرُوهَا الأَتْرَاكْ والبَايَاتْ خَلُوهَا فِي الشُوْم مَسْبِيَة
شْحَالْ شْيَاخْ مْشَاتْ مَا وَلاَتْ فِي البْحَرْ المِحِيْطْ مَنْفِيَة.31

إنّ انتصار بوعمامة على الفرنسيين كان باعتراف الفرنسيين إذ يؤكد هذا الأمر محرّر صحيفة le petit fanal الصحفي بيزيbezy فيقول "وصلتنا معلومات هامة وأكيدة ،مؤدّاها أنّنا قد فدينا عددا من الأسرى الفرنسيين من خصمنا،وبذلك كنا على صواب إذ لا يمكننا فعل شيء آخر، لكن و رغم ذلك فإن الأمر مخجل حقا ،فقد أجبرنا على التفاوض مع "حضرة" بوعمامة الند للند"32.كان هذا المقال بعد شهر ونصف من معركة الشلالة .ورغم مغادرة بوعمامة لمنطقة القصور عامة والشلالة خاصة إلاّ أنّ المنطقة لم تهدأ نهائيا وظلت تواصل الغارات على الفرنسيين بحيث تمكّنت من مهاجمة وزير الحربية الفرنسي جونار في ماي 1903خلال زيارته للمنطقة وهنا يشير لورو "إنّ جرأة البربر قد أصبحت عنيفة إلى درجة التردد ومهاجمة موكب جونار قرب فقيق للإطلاع على الوضع شخصيا 33"

إنّ هناك حدثاً مهماً في تاريخ الشلالة الظهرانية هو فتح مدرسة فرنسية سنة 1909 تواصلت فيها الدراسة حتى سنة1919 وهذا من أجل طمس الهوية الوطنية وغرس الثقافة الفرنسية في نفوس أهالي القصر الذين تمردوا كثيرا على فرنسا وانضموا إلى مقاومة الأمير عبد القادر ،وثورة أولاد سيد الشيخ ،ومقاومة بوعمامة لكن هذا زاد أهالي القصر إصراراً على مناهضة الاستعمار رغم تزايده بالمنطقة حيث ظل أهالي القصر يمدون جيش التحرير بالمئونة، وانضم الكثير منهم إلى جيش التحرير حتى من النساء.

الخاتمة:

بعد قيامنا بهذا البحث التاريخي حول الشلالة الظهرانية تبين لنا أنها منطقة ضاربة بجذورها في عمق التاريخ ولم تكن منطقة معزولة عن مسرح الأحداث التي شهدتها جل مناطق الجزائر إذ مرت بفترات صعبة سجل فيها السكان المحليين بطولات بقيت شاهدة عليهم وعلى قصرهم خاصة منذ العهد العثماني حتى عهد الاستعمار الفرنسي .

أما في مرحلة العهد العثماني ، فإن الشلالة كباقي القصور الأخرى قاومت السلطة العثمانية ولم تعترف بها مما عرضها لهجوم حاكم وهران الباي محمد الكبير .واستطاعت أن تصمد بفصل حصانة القصر والمقاومة الشرسة من طرف السكان للتواجد الأجنبي التركي الذي أراد أن يفرض عليهم الضرائب ويخضعهم لسلطته .

لقد عرف قصر الشلالة الظهرانية عدة طرق صوفية خاصة الشاذلية والتيجانية فقد مكث فيها سيدي أحمد التيجاني، وسيدي سليمان أبو سماحة وابنه محمد ، وسيدي أحمد المجذوب، و سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي

MOKARABAT

مازال ضريح ابنته عائشة شاهداً على ذلك وبهذا كانت الشلالة مركز إشعاع ديني وفكري. ونظراً للموقع الإستراتيجي للشلالة، فإنها كانت مركز عبور للقوافل التجارية من تيهرت فالشلالة إلى سجلماسة وقوافل الحجيج والرحالة المغاربة.أما أثناء الاحتلال الفرنسي فإن الشلالة استطاعت أن تقاومه منذ البداية إذ احتضنت الأمير عبد القادر وافتدته بستين (60) شابا من القصر ،كما أدت دورا أساسيا في ثورة أولاد سيد الشيخ.وفيما، بعد عرفت الشلالة تاريخا حافلا مع الشيخ بوعمامة وخاضت عدة معارك معه أهمها معركة الشلالة

الهوامش:

[1] François Cominardi,Au cœur des monts des ksours,le ksar de chellala dahrania,in Tradition et Modernité ,Revue d'architecture et d' urbanisme,N2 Alger,1995,p45.

[2] قرية تتكون من مئة منزل مبنية بصورة سيئة محاطة بسور حماية في وضعية غير جيدة به بابين ،باب العسكري وباب النوادر، يوجد بالقصر مسجد ، مدرسة،طالب الملقب سي بلقاسم بن عبو والذي يقوم أيضا بمهام القاضي لمزيد من المعلومات أنظر :

Daumas (l.c.)le Sahara algérien études géographiques statistiques et historiques sur la région au sud des établissements français en Algérie, paris Alger 1845,p-p, 242-243

[3] -رشيد بورويبة وآخرون، الجزائر في تاريخ العهد العثماني ،ج3،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1984. ص،457.

[4] ناصر الدين سعيدوني،الجزائر في التاريخ ،العهد العثماني،ج4،الجزائر،،المؤسسة الوطنية للكتاب ،1984،ص،181

[5] المخزن:تعرف بعشائر المخزن ،وهي تجمعات سكانية اصطناعية متمايزة في أصولها مختلفة في أعراقها ،فمنها من أقره الأتراك بالأراضي التي وجدت عليها، لتكون سندا لهم ،ومنها من أعطيت لها الأرض لتستقر عليها ، ومنها من استقدم كأفراد مغامرين أو متطوعين من جهات مختلفة ليؤلف جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها بخدمة الحكومة التركية.لمزيد من الإيضاح انظر دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني)،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1984،ص،98.

[7] -مولاي بلحميسي،الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ،1981،ص28.

[8]-M.RENE BASSET,note de lexicographie berbère, imprimerie nationale paris,1905 p,313.

[9]- خليفة بن عمارة،سيرة البوبكرية (أجداد أولاد سيدي الشيخ)تاريخ وهيجوغرافية الجنوب الغربي الجزائري (القرن15،14،و16)،ترجمة محمد قندوسي،ج1،مكتبة جودي مسعود،وهران،2002،ص،63.

[10] -بوسمغون:هي بلدة تقع بالقرب من الشلالة الظهرانية ،تقع وسط جبال القصور في الجزء الغربي لجبال الأطلس الصحراوي،تتواجد بها الزاوية التيجانية التي كانت محل زيارة وفود أجنبية، من مصر وتونس والمغرب و السنغال. بوسمغون بلدية تابعة جغرافيا وإداريا لولاية على بعد مائة وستين كيلومتر (160)كلم من عاصمة الولاية البيض.

[11] -أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري، ج1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981،ص،518.

[12] -المرجع نفسه،ص،519.

[13] - أحمد ابن يوسف المليانى:ولد بتليوانت قرب معسكر،أو بقلعة بني راشد،أو في قورارة الصحراوية سنة 1436،1432أو 1440،هناك اختلاف حول أصله قد يكون بربريا زناتيا-كما يوحي بذلك لقبه المريني واستعماله للهجة الزناتية إبان حياته- أوشريفا حسب بعض النسابيات.فرض نفسه على

MOKARABAT

العرب المثقفين والأميين،درس في بجايةفي زاوية الزروق البرنوسي حيث توج مقدما في الطريقة الصوفية الشاذلية،كان كثير التجوال –بين فجيج والشلالة.ا نظر بن عمارة خليفة سيرة البوبكرية ص 58

[14] – المرجع نغسه،ص،58.

[15]–أندري برنيان وآخرون،الجزائر بين الماضي والحاضر.ترجمة رابح اسطنبولي ومنصف عاشور ،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1984،ص،289.

[16]– François Cominardi opcit,p 50.

[17] –Ibid p,50.

[18]– IBID ,P 50.

[19] –هذه القصيدة موجودة لدى الباحث جبري الحبيب الساكن بالشلالة الظهرانية.

[20]بوعمامة :هو محمد بن إبراهيم بن التاج بن عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة بن ليلى بن عيسى بن أبي يحيى بن معمر بن سليمان (الملقب بن عالية) بن سعيد بن عقيل بن حفص (الملقب حرمة الله) بن عساكر بن زيد بن حميد بن عيسى بن الشاذلي بن محمد الملقب بالشبلي بن عيسى بن زيد بن طفيل (المدعو الزغاوي) بن صفوان بن محمد بن عبد الرحمان بن سيدنا أبي بكر بن أبي قحافة عثمان بن عصار بن عمر بن كعب بن أسد بن تميم بن مرة نقلا عن الملتقى الوطني حول حياة الشيخ بوعمامة المجاهد المتصوف والقائد العسكري النعامة يوم 9-11 أفريل 2001.

[21]–بوداود بلعرج،جوانب مضيئة من حياة رائد المقاومة الشعبية،جريدة الخبر،السبت24ماي1997 ص 27.

[22] جريفيل :مدينة البيض حاليا نسبة إلى العقيد جيري، أصل التسمية لمدينة **البيض** يعود إلي أن كلمة البيض مأخوذة من صفة البياض نسبة إلى المكان ذي التربة البيضاء الذي شيدت عليه المدينة ،وتروي رواية أخرى أن التسمية" البيض "مأخوذة من شهرة المنطقة بالثلوج كل شتاء .وعلى العموم فإن أصل التسمية مصدره طبيعة المكان التضاريسية أو المناخية، وعند تشييد مباني الأوربيين الأولى سميت المدينة ب: "ليني فيل " "Lignyville" بعد ذلك جاء الكولونيل" جيري "لأول مرة على رأس قوات فرنسية سنة 1845 م، حيث أنشأ في سنة 1852 مركزا عسكريا بالبيض ، وعند تأسيس المدينة أخذت اسمه وأصبحت تعرف ب" : جيري فيل ." أنظر LES OULED SIDI CHEIKH ET LE, A .DU MAZET Revue de géographie TERRITOIRE INSURGE DE LA PROVINCE D'ORAN,P454 وهي تقع في الجنوب الوهراني ،حوالي 280 كلم من وهران، تقع على ارتفاع 1320 م من البحر على جبل عمور،

أنظر Roger Duvollet, d'Alger à Tamanrasset , tome3, 1983, p 62

[23] –عبد القادرخليفي: المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة،دارالغرب للنشر والإشهار،الجزائر،2004،ص62.

[24] –بوداود بلعرج ، المرجع السابق.ص 27.

[25] –مباركي عبد المجيد، قصر مغرار التحتاني ،دراسة أثرية ومعمارية ،مخطوط ماجستير،جامعة تلمسان قسم الثقافة الشعبية 2001 ،ص،29.

[26]– Djilali sari , linsurection de 1881-1882,SNDF,Alger,1990,p,97.

[27] –عبد الحميدزوزو،ثورة بوعمامة 1881-1882،المركز الوطني للدراسات التاريخية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981،ص–ص،7-8.

[28]– Djilali SARI,opcit, page,100.

[29] –عبد القادر خليفي،المرجع السابق،ص،79.

[30]– François Cominardi,OPCIT,P,50

[31] –هذه القصيدة موجودة عند الباحث جبري الحبيب بالشلالة الظهرانية.

[32] –عبد القادر خليفي ،المرجع السابق،ص،79.

[33]– LEHURAUX,le conquérant des oasis,colonel teodor pein,paris,1935,p,145.

MOKARABAT